

الجمعيات الإسلامية ودورها الاجتماعي والسياسي في سورية

من بداية القرن العشرين حتى ثورة 2011

رغداء زيدان⁽¹⁾

ملخص

قدم هذا البحث عرضاً لظهور الجمعيات الإسلامية في سورية الذي كانت انطلاقته في السلطنة العثمانية، ومع دخول الفرنسيين، واستشعاراً للخطر القادم مع المحتل المختلف دينياً وثقافياً، انتشرت الجمعيات بهدف نشر التعليم الديني الصحيح، ومحاربة الجهل، والمحافظة على الأخلاق والقيم الإسلامية، والعمل على مقاومة تغريب المجتمع، إضافة إلى محاربة المستعمر، والعمل على نهضة البلاد واستقلالها. واستطاعت تلك الجمعيات بناء قوة اجتماعية، كان لها تأثيرها في الحياة السياسية والاجتماعية في البلاد، استمر حتى بعد الاستقلال. وعلى الرغم من أن نشاط الجمعيات انصب بعد الاستقلال على العمل على مقاومة التغريب والأفكار الوافدة من خلال التعليم والعمل المجتمعي والتثقيف، إلا أنها ضمت رجالاً من مشارب فكرية مختلفة، فبرزت شخصيات دينية وفكرية وسياسية عدة، أسهمت في رسم تاريخ سورية الحديث، من خلال نشاطها في الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية والحزبية. وعندما استلم البعث السلطة بعد انقلاب مارس/آذار 1963م، انحسر دور العمل المدني عموماً، ومن ضمنه عمل الجمعيات الإسلامية. واقتصر على ما يناسب رؤية السلطة الأسدية التي حكمت البلاد حتى يومنا هذا.

وقد توصل البحث لمجموعة من النتائج تلخص مسيرة عمل تلك الجمعيات، وأوصى بمزيد من الدراسة حول بنى المجتمع السوري التي تأثرت بكثير من الأحداث والعوامل، ولم يستطع السوريون من خلالها بناء عقدهم الاجتماعي المطلوب القادر على بناء دولة حقيقة غير قابلة لتسلط الاستبداد.

أولاً: مقدمة

بدأ ظهور الجمعيات المدنية ومنها الإسلامية في سورية نتيجة طبيعية للتغيرات التي طرأت على الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي في المنطقة عموماً، وفي سورية خصوصاً، نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وكانت لتلك الجمعيات غاياتها ونشاطها، إذ اهتمت بصورة خاصة بإبراز هوية خاصة تقوم على القومية العربية والرغبة بالإصلاح، في ظل تنامي الشعور القومي في السلطنة. ومع الانتداب الفرنسي شهدت سورية تغيرات كثيرة، أثارت مخاوف العلماء ورجال الدين الذين رأوا فيها تهديداً لدين المجتمع وقيمه وهويته،

(1) رغدأ زيدان: دكتورة في الدراسات الإسلامية، باحثة في الفكر الإسلامي.

فانتشرت الجمعيات الإسلامية بهدف نشر التعليم الديني الصحيح، ومحاربة الجهل، والمحافظة على الأخلاق والقيم الإسلامية، والعمل على مقاومة تغريب المجتمع، إضافة إلى محاربة المستعمر، والعمل على نهضة البلاد واستقلالها. واستطاعت تلك الجمعيات بناء قوة اجتماعية مؤثرة، كان لها تأثيرها في الحياة السياسية والاجتماعية في البلاد.

وبعد الاستقلال كان لهذه الجمعيات نشاطها المؤثر في الحياة الاجتماعية والسياسية في البلاد. وعمل فيها رجال من مشارب فكرية مختلفة، فبرزت شخصيات دينية وفكرية وسياسية عدة، أسهمت في رسم تاريخ سورية الحديث من خلال نشاطها في الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية والحزبية. وقد تأثرت تلك الجمعيات بمجريات الأحداث، فكان نشاطها يمتد ويتوسع، أو ينحسر ويتقلص تبعاً للأوضاع الحاكمة. وعندما استلم البعث السلطة بعد انقلاب مارس/أذار 1963م انحسر دورها الاجتماعي والسياسي، واقتصر عملها على ما يناسب رؤية السلطة الأسدية التي حكمت البلاد حتى يومنا هذا.

في هذا البحث دُرست أسباب نشوء هذه الجمعيات، وتحولاتها وتأثيراتها في الحياة السياسية والاجتماعية في القرن المنصرم، من خلال الإجابة عن الأسئلة الآتية:

1. ما العوامل المؤثرة في قيام الجمعيات الإسلامية في سورية الحديثة، وما أهم تلك الجمعيات؟
2. ما أثر تلك الجمعيات في الحياة الاجتماعية والسياسية خلال مئة عام؟
3. ما أهم الشخصيات الفكرية التي برزت عبر تلك الجمعيات، وما إنجازاتها السياسية والاجتماعية؟
4. كيف تعامل نظام الأسد مع الجمعيات الإسلامية، وكيف استطاع تقليص دورها الاجتماعي والسياسي؟

اعتمد البحث منهجية قائمة على العرض التاريخي الوصفي، إضافة إلى التحليل، واستقراء الأحداث، بالاعتماد على مراجع تخص الحياة السياسية والاجتماعية خلال القرن المنصرم في البلاد.

ثانياً: تمهيد حول نشوء الجمعيات في سورية

يعود ظهور الجمعيات الإسلامية في سورية إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكان أولها جمعية المقاصد الخيرية التي انتشرت فروعها في كل أنحاء سورية عام 1878م⁽²⁾. ثم بدأ ظهور الجمعيات ذات الطابع السياسي مع مطلع القرن العشرين، فكانت «حلقة دمشق الكبرى»⁽³⁾ التي أسسها الشيخ طاهر الجزائري (1852-1920م) قبل إعلان الدستور العثماني، وناقشت قضية الانحطاط وحاجة السلطنة العثمانية للإصلاح، وكان أعضاؤها يدعون إلى تعليم العلوم العصرية، وبعث الروح العربية، وتمجيد التراث العربي والإسلامي⁽⁴⁾، وضمت

(2) انظر «عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864-1914م، ط1، (القاهرة: دار المعارف، 1969م)، ص 264-265.

(3) رغداء زيدان، «الشيخ طاهر الجزائري وحلقة دمشق الكبرى»، في التراث العربي، 108 (ذو الحجة 1428/ كانون الأول 2008)، ص 29 وما بعد.

(4) سهيلة ياسين الريماوي، «صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام»، في البحث التاريخي، 7 (ربيع الأول 1402/ كانون الثاني، 1982)، ص 136-137.

مجموعة من رجال الفكر والعلم، المسلمين ديناً أو ثقافة، وكانوا يرون أن الدولة العثمانية موشكة على الانهيار، ويجب على العرب التأهب بالعلم والأخلاق، لنيل استقلالهم وصون بلادهم ومنع تقسيمها من قبل المستعمرين⁽⁵⁾.

كان للشيخ جمال الدين القاسمي (1866. 1914م) حلقة خاصة ظهرت قبل حلقة الشيخ طاهر في دمشق، يجتمع فيها مع مجموعة من أصدقائه، على رأسهم الشيخ عبد الرزاق البيطار (1837. 1916م)، يقرؤون بعض الكتب الدينية والفقهية والفكرية، ويناقدون أفكارها، وهو ما أزعج السلطات العثمانية، وجر على المجموعة جملة من التهم منها: الاجتهاد، وتهديد أمن الدولة⁽⁶⁾.

أما الشيخ محمد رشيد رضا (1865. 1935م) صاحب مجلة "المنار"، ورئيس المؤتمر السوري الذي نتج عنه أول دستور لسورية الحديثة عام 1920، فقد اشترك في تأسيس بعض الجمعيات السرية بهدف المطالبة بالإصلاح السياسي والإداري في السلطنة، من مثل «جمعية الشورى العثمانية» التي كانت تطالب بالحكم النيابي والعمل بالدستور⁽⁷⁾. واشترك في تأسيس حزب اللامركزية الإدارية العثماني عام 1913م الذي كان يطالب باللامركزية، من أجل ضمان حقوق المكونات غير التركية من الحكم والممارسة السياسية⁽⁸⁾. ورشيد رضا هو أحد أعضاء جمعية "العربية الفتاة" التي ضمت مجموعة كبيرة من رجال النهضة العربية، والذين كان كثير منهم من رجال الدين والعلماء المسلمين، والتي كانت تدعو لمحاربة الاستبداد ومنع الحكم الفردي وتطالب بالدستور والحياة النيابية وحقوق العرب السياسية⁽⁹⁾.

كان انتشار الجمعيات المدنية في سورية في تلك المدة وسيلة لتلبية الحاجة المجتمعية إلى العمل الجماعي بعيداً عن السيطرة الحكومية، مع ملاحظة التأثيرات الغربية في تنظيمها وبنائها وأسس عملها، وإن كان بعض الباحثين قد وجد أن ظهور الجمعيات جاء تعبيراً «عن رغبة العلماء في استرداد نفوذهم بعد تضاؤل سلطتهم المعنوية على أثر الاجراءات التي اتخذتها الدولة العثمانية آنذاك في ما يعرف بالتنظيمات التي منحت قيمة إلى المعرفة غير الدينية»⁽¹⁰⁾، غير أن هذا التحليل يغفل وضع الدولة العثمانية، وحال الانحطاط التي كانت تعانيها البلاد آنذاك، ما شجع كثيراً من المفكرين والناهين على التحرك للدعوة للنهضة ومحاربة الانحطاط، ومع حالة الحكم الفردي كانت الجمعيات السرية المطالبة بالإصلاح مجال العمل المتاح أمام الناشطين العاملين، لكن عندما أصبح خطر انقراض هذه الدولة ظاهراً للعيان، انتقل العاملون من الاشتغال بالإصلاح والدعوة للنهضة إلى العمل على ضمان حقوق العرب من الأتراك⁽¹¹⁾، وهو ما فتح الباب أمام الثورة العربية الكبرى التي اندلعت سنة 1916م، وكان من

(5) كان من أعضاء تلك الجمعية الشيخ جمال الدين القاسمي، الشيخ عبد الرزاق البيطار، وسليم البخاري، ورفيق العظم، وفارس الخوري، وعبد الوهاب الإنجليزي، ومحب الدين الخطيب، وعبد الرحمن الشهبندر، وعبد الحميد الزهراوي، وسليم الجزائري، ومحمد كرد علي، وغيرهم: انظر: محب الدين الخطيب، «نهضة العرب للاضطلاع برسالتهم»، في الفتح، 823 (جمادى الآخرة 1324)، ص 363.

(6) ظافر القاسمي، جمال الدين القاسمي وعصره، ط1، (دمشق، 1385هـ/1965م)، ص 48. 69.

(7) محب الدين الخطيب، «رفيق بك العظم»، في الزهراء، 2 (الربيعان، 1344)، ص 230.

(8) كان من مؤسسي الحزب أيضاً: رفيق العظم والشيخ عبد الحميد الزهراوي، وحقي بك العظم، وغيرهم. انظر: المرجع نفسه، 231.

(9) تأسست عام 1909م بجهد بعض الشباب العرب الذين كانوا يواصلون دراساتهم في باريس، وبينوا أن غايتها هي النهوض بالأمة العربية إلى مصاف الأمم الحية، وكان من أعضائها مجموعة كبيرة من المشايخ من مثل رشيد رضا ومحمد كامل القصاب ومحب الدين الخطيب وغيرهم. انظر: سهيلة ياسين الريماوي، «مع رواد النهضة القومية المناضل محب الدين الخطيب»، في البحث التاريخي، 3 (ذو الحجة 1404/أيلول 1984)، ص 36-37.

(10) انظر: رضوان زيادة، العلاقة المبكرة بين الدين والدولة كما تبدو في سورية الحديثة، موقع الملتقى الفكري للإبداع، على الرابط: <https://cutt.us/G1Nbe>.

(11) يقول رشيد رضا: «إنني على اشتغالي الأساسي بالإصلاح الإسلامي العام كنت أسعى مع بعض أحرار العثمانيين من الترك وغيرهم لإصلاح الدولة العثمانية... ثم ذهبت إلى الأستانة للسعي لدى الدولة فيما تحيا به وبحياة الإسلام، وتتحد بالعرب أتم الاتحاد، وبعد معالجة العمل سنة كاملة، اقتنعت بأن هذه الدولة

نتائجها انفصال سورية عن الدولة العثمانية، ثم خضوعها للانتداب الفرنسي.

ثالثاً: الجمعيات الإسلامية منذ بداية الانتداب الفرنسي حتى انقلاب البعث وتأثيرها الاجتماعي والسياسي

عندما دخل الفرنسيون سورية استشعر علماء الدين الخطر القادم معهم، والذي يهدد دين المجتمع وأخلاقه، فالفرنسيون كانوا من دين آخر، وكان لهم ثقافة مختلفة وأطباع متنوعة، وقد رسخ منذ دخولهم البلاد أنهم جاؤوا لتغيير وجه سورية المحافظ، والعبث بنسيجها المجتمعي والطائفي، وشاعت عبارة القائد الفرنسي غورو عند دخوله دمشق ووقوفه أمام قبر صلاح الدين⁽¹²⁾ قائلاً: «ها قد عدنا يا صلاح الدين» في إشارة إلى الحملات الصليبية⁽¹³⁾، لذلك فقد استنفر العلماء ورجال الدين لدفع هذا الخطر بكل إمكاناتهم التعليمية والتوعوية، فسارعوا لتشكيل الجمعيات الإسلامية التي بدأ أن أهم أهدافها المحافظة على الدين والهوية ومحاربة الجهل والبدع التغريبية، عبر استخدام كل الأساليب المتاحة من تعليم ومحاضرات ومنشورات وبيانات وإغاثة وسياسة وغير ذلك، فانتشرت الجمعيات الإسلامية في المدن السورية كلها، وخاصة في العاصمة دمشق، وفي المدن الكبرى من مثل حلب وحمص. غير أن هذه الجمعيات بما امتلكتها من أدوات وتأثير شعبي ورغبة في مواجهة التأثير الفرنسي الثقافي الاستعماري التغيير، أرادت لعب دور وصائي على المجتمع، ورسم تغيراته وفق تصوراتها لمصالحه، وبما يحافظ على هويته ودينه، فتوسلت لذلك بالنشاط المدني تارة والنفوذ السياسي تارة أخرى، ونشطت بصورة خاصة في المدن الكبرى، من مثل دمشق وحلب. ولبيان الصورة بشكل أوضح حول عمل تلك الجمعيات وتأثيرها في المجتمع نعرض لأهمها كما يأتي:

1. الجمعية الغراء

كان الواقع الديني في سورية عند دخول الفرنسيين قد شهد انقسامًا بين علماء إصلاحيين مفكرين بعيدين عن الناس، وجاهل منتشر يكاد يعصف بقدرته المجتمع على البقاء. وقد وصف الشيخ علي الطنطاوي (1909 . 1999) هذه الحال، ثم ذكر أن هذا تغير مع ظهور دعوة الشيخين علي الدقر (1877 . 1943 م) ومحمد هاشم الخطيب (1890 . 1958 م)، التي «هزت دمشق وضواحيها هزًا عنيفًا»⁽¹⁴⁾، فقد كان الاثنان من تلاميذ الشيخ بدر الدين الحسيني (1850 . 1935 م)، وجالا معه في مدن سورية لوعظ الناس، وبيان أحكام دينهم، وحثهم على الجهاد ضد الفرنسيين، «وكانت هذه الجولة هي الشرارة التي أشعلت الثورة [ضد احتلال الفرنسيين لسورية]»⁽¹⁵⁾.

غير مستعدة للبقاء، وأن انحلالها بأيدي رجالها من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ضربة لازب، وأن العرب إذا لم يؤسسوا بأنفسهم لأنفسهم بناءً للاستقلال القومي: فلا بد من سقوطهم بسقوطها». انظر: محمد رشيد رضا، الملك فيصل العبرة بحياته ووفاته 2، في مجلة المنار، 7، (شعبان 1352/ نوفمبر 1933)، 555. (12) نقل عن فارس الخوري تعليقه على قول غورو بأن فرنسا أرادت التستر بالدين كما فعل الصليبيون من قبل، انظر: كوليت خوري، أوراق فارس الخوري، ط2، (دمشق: دار طلاس، 2001)، ج2، ص 83.

(13) حول حقيقة قول غورو لهذه العبارة أمام قبر صلاح الدين انظر: عبد السلام حيدر، في الذكرى المنوية لزيارة الجنرال جورو لضريح صلاح الدين.. هل قال «ها قد عدنا يا صلاح الدين»؟ 3 من شهود العيان، موقع عربي بوست، 2020/6/24، على الرابط: <https://cutt.us/Kn7A9>

(14) علي الطنطاوي، حصاد ربع قرن في حقل الدعوة الإسلامية في الشام، في مجلة المسلمون، 2 (ربيع الثاني 1373 هـ/ ديسمبر 1953 م)، ص 44. 43.

(15) علي الطنطاوي، ذكريات علي الطنطاوي، ط1، (جدة: دار المنارة للنشر، 1985/1405)، ج 1، ص 219.

أسس الشيخان الجمعية الغراء التي كانت أول جمعية من نوعها تظهر في سورية، وكان لها أثر كبير في البلاد، ففي عام 1924م أراد الشيخ الدقر تعليم مجموعة من الشباب اضطروا للقدوم إلى دمشق من «حوران» طلبًا للعيش. ثم عمل مع الشيخ الخطيب على أن يأخذوا من كل قرية في منطقة حوران وما حولها شابًا من أجل تعليمه وتفقيهه في الدين، ليعود بعدها إلى أهله معلمًا مرشدًا، بعد أن أحسا بخطر الاحتلال الفرنسي على شباب تلك المنطقة التي كانت تخلو من العلماء، فأرادوا تحصينهم بالعلم حماية لهم من التنصير⁽¹⁶⁾. ثم توسعت الغراء، وأسست مدارس متنوعة، إضافة إلى تأسيس ثانوية السعادة، ومعهد العلوم الشرعية للذكور، ومعهد العلوم الشرعية للإناث.

تميز نشاط الغراء التعليمي في مرحلة الانتداب الفرنسي بكونه تعليمًا دينيًا تقليديًا، لم يهتم بالعلوم الحديثة، وأزهد طلابه بها، وركز على التربية المشيخية التي تتميز بتمحور التلميذ حول شيخه، فلا يأخذ إلا منه، ولا يثق برأي آخر غير رأي شيخه، لذلك فقد قال الشيخ الطنطاوي إن القائمين على الغراء لم يكونوا يثقون بأحد، ولم يرغبوا بالتعاون مع أحد، وكانوا يحذرون تلاميذهم من الاتصال بأي عالم لا يدرس عندهم، أو قراءة كتاب من غير ما عندهم من كتب، وقال إنهم اهتموا بالمظهر دون الجوهر⁽¹⁷⁾.

إلا أن شخصية الشيخ الدقر وشعبيته بين الناس، وكذلك ورع الشيخ الخطيب، وعلمه، أكسبا الجمعية ثقة كبيرة بين الناس، وكان التجار والأغنياء لا يبخلون بالتبرع لها، وبيادرون لدعمها، وعلى الرغم من اختلاف الشيخين الذي وصل إلى حد القطيعة، وتبادل الاتهامات التي تناولتها الصحف والمطبوعات⁽¹⁸⁾، ما أدى إلى ترك الشيخ هاشم الخطيب الجمعية، واستقالته منها، وإنشائه جمعية أخرى هي جمعية «التهديب والتعليم» عام 1930م التي رأسها حتى وفاته⁽¹⁹⁾؛ إلا أن الغراء صارت محط اهتمام السياسيين الذين تسابقوا لخطب ودها، والحصول على تأييدها في انتخاباتهم، كما أنهم استدرجوها سنة 1940م للتورط في قضية مقتل السياسي عبد الرحمن الشهبندر (1879. 1940م)، وأدى ذلك إلى إعدام أحد طلاب الجمعية بتهمة الإفتاء بقتل الشهبندر⁽²⁰⁾، وهو ما أثر في سمعتها الاجتماعية، لكن سرعان ما استطاعت تعويض ذلك، ما دفع بشكري القوتلي (1891. 1967م) إلى إدراج اسم أمين سر الجمعية الشيخ عبد الحميد الطباع (1889-1950م) في قائمة مرشحي كتلتة السياسية في انتخابات عام 1943م لكسب أصوات الناس⁽²¹⁾. وكان واضحًا أن التحالف بين القوتلي والجمعية الغراء يسعى لتحقيق مصالح الطرفين، فبينما كان القوتلي، وهو السياسي المحنك، راغبًا في الاستفادة من القاعدة الشعبية الواسعة للجمعية، وكذلك شبكة داعمها من التجار وأصحاب الأموال في عمله السياسي، كان

(16) انظر: باسل الرفاعي، الجمعيات الإسلامية في سورية. الجمعية الغراء، رابطة العلماء السوريين، جمادى الآخرة 1434هـ/مايو 2013، 9.10. وانظر: يوهانس رايسنر، الحركات الإسلامية في سورية من الأربعينيات وحتى نهاية عهد الشيشكلي، محمد إبراهيم الأناسي (مترجمًا)، ط1، (بيروت: دار رياض الريس، يوليو 2005)، ص 118، 119. وانظر: برنامج مراجعات، الحلقة الأولى، القسم الثاني، على الرابط: <https://www.youtube.com/watch?v=gIfzKb9Simg>.

(17) علي الطنطاوي، «حصار ربع قرن»، ص 45.

(18) سبب الخلاف بين الشيخين أن الشيخ الدقر كان يأمر الطلاب في الجمعية بقراءة صلاة على النبي تسمى صلاة الفاتح، ورفض الرجوع عنها رغم تحذير الشيخ الخطيب له، فحمل عليه حملة كبيرة، وحرك الرأي العام في دمشق، ولولا أن شهد الشيخ بدر الدين الحسني للشيخ الدقر بالخيرية، لما سكت الأمور في دمشق. انظر: عبد العزيز الخطيب، غر الشام في تراجم آل الخطيب الحسينية ومعاصريهم، ط1، (دمشق: دار حسان، 1417هـ/1996م)، ص 235.

(19) انظر: يوسف المرعشلي، نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، ط1، (بيروت: دار المعرفة، 1427هـ/2006م)، ص 2، ص 1523.

(20) انظر: نزار أباطة، الشيخ علي الدقر رجل أحيأ الله به أمة، ط1، (دمشق: دار الفكر، 1431هـ/2010م)، ص 112. وانظر: أكرم الحوراني، مذكرات أكرم الحوراني، (مكتبة مدبولي، د.ت)، ص 183.

(21) انظر: أكرم الحوراني، ص 244، 245. وانظر: يوهانس رايسنر، ص 119.

أعضاء الجمعية ومشايخها يرغبون بتحقيق نفوذ يمكنهم من تحقيق أهداف الجمعية التي جاء في نظامها الأساسي أنها تسعى لـ«توجيه المسلمين إلى التمسك بالدين عن طريق التعليم والإرشاد والدعوة»⁽²²⁾، ولهذا استغل أعضاء الجمعية وجود الشيخ الطباع في البرلمان للعمل على محاربة ما كانوا يرونه من مظاهر التغريب التي كانت تظهر في البلاد نتيجة الوجود الفرنسي من جهة والتغيرات الاجتماعية المتسارعة من جهة أخرى، وكان تحالفهم مع القوتلي قد أغرهم بإصدار البيانات وتحشيد الناس من أجل المطالبة بتخصيص حافلات خاصة للنساء، وإغلاق جميع النوادي والملاهي التي تقدم الخمور واعتقال مالكيها، وتشكيل مراكز لشرطة الأخلاق تراقب الطرقات وتمنع وجود المنكرات فيها⁽²³⁾، وهو ما كان يعد عند آخرين تدخلاً في حريات الناس وتصرفاتهم. وفي صيف عام 1944م اصطدمت الغراء مع جمعية «نقطة الحليب»، وهي جمعية نسائية أنشأتها فرنسا عام 1922، وضمت نساءً مسيحيات ومسلمات من أهل دمشق، وكان بينهن زوجات سياسيين، وأهم نشاطات تلك الجمعية جمع الحليب وتعقيمه وتوزيعه على فقراء الأطفال وأيتامهم، وكانت تقيم حفلاً سنوياً لجمع التبرعات، وقررت إقامة حفلها ذلك العام في نادي الضباط الفرنسيين بدمشق، ما أثار رجال الجمعية الغراء ودعوا إلى اضراب استجابت له دمشق بأكملها، خاصة وأن «نقطة الحليب» كانت جمعية ارسنقراطية مدعومة من فرنسا، ولم يستسغ الناس دخول النساء إلى نادي الضباط الفرنسي، فتحركت الغيرة الوطنية والدينية وقامت مظاهرات تطورت إلى فوضى عامة، تدخلت فيها قوات الأمن وأطلقت الرصاص على المتظاهرين، ما أدى إلى مقتل عدد منهم، فامتدت الاضطرابات إلى حلب وحمص وحمص وحمص ومدن سورية أخرى⁽²⁴⁾، ولذلك فقد استغل القوتلي الوضع للحد من نفوذ الجمعية الذي راح يتصاعد في البلاد، فأوقف توزيع الحليب الذي كانت تقدمه «نقطة الحليب»، وبالوقت نفسه أوقف توزيع الطحين الذي كانت الغراء توزعه على الناس من دون بديل، ما أثر في شعبيتها، وهو ما دفع الجمعية لاتخاذ موقف معاد لقائمة القوتلي في الانتخابات النيابية التالية عام 1947م، فلجأ إلى التزوير لإنقاذ الموقف، وكان أول عمل قام به القوتلي بعد تدارك الموقف إصدار قرار بحل الجمعية والاستيلاء على سجلاتها⁽²⁵⁾، لكن الغراء استطاعت الحصول على ترخيص جديد بعد أشهر قليلة، واستأنفت نشاطها التعليمي والاجتماعي، كما استمرت في إصدار البيانات والاعتراض على بعض النشاطات الاجتماعية التي كانت ترى فيها خروجاً عن الدين، حتى وقعت الوحدة بين سورية ومصر، فأغلق معهدها التعليمي⁽²⁶⁾، وعلى الرغم من أن الجمعية استطاعت في ما بعد فتح المعهد، لكن نشاطها الاجتماعي انحسر نتيجة إجراءات الاستبداد البعثي الذي تولى السلطة في البلاد منذ ذلك التاريخ.

2. جمعية الهداية الإسلامية

ظهرت في 26 يوليو/ تموز 1930م على يد مجموعة من الدمشقيين⁽²⁷⁾، بغاية: «محاربة ما حدث من البدع،

(22) انظر: نظام الجمعية الغراء الأساسي في، نزار أباطة، الشيخ علي الدقر، ص 98.

(23) باسل الرفاعي، الجمعيات الإسلامية في سورية. الجمعية الغراء، ص 11.

(24) كرم الحوراني، ص 310. 312.

(25) انظر: المرجع نفسه، ص 312، وانظر: باسل الرفاعي، الجمعيات الإسلامية في سورية. الجمعية الغراء، ص 13.

(26) نزار أباطة، الشيخ علي الدقر، ص 116.

(27) هم: أبو الخير الميداني، راشد القوتلي، عارف الدوجي، عبد الرزاق الحفار، عبد القادر شموط، عبد القادر العاني، محمد الكامل القصار، محمد توفيق

ومقاومة ما تجدد من الأهواء، قيامًا بالواجب الشرعي، وانتصارًا للحق على الباطل»⁽²⁸⁾.

كان الشيخ أبو الخير الميداني (1875-1961م) من أهم رجالها⁽²⁹⁾، أما الشيخ محمود ياسين (1887. 1948م) فقد تولى رئاسة الجمعية مدة عشرين عامًا⁽³⁰⁾، ثم أصبح اسم الشيخ محمد الكامل القصار متداولًا كأمين لسر الجمعية. وكان للجمعية فرع في حماة اهتم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح والإرشاد، وبث الفضيلة، ودرء الرذيلة، بما يمكنها من الوسائل المشروعة، من دون علاقة بالسياسة⁽³¹⁾.

ركزت الجمعية على التعليم الديني، وسعت لنشره في سورية⁽³²⁾، في محاولة لحفظ هوية المجتمع، ومنع التغريب ومظاهره وأفكاره من التغلغل فيه، فاهتمت بتوزيع المنشورات التي تناولت موضوعات تخص الأمة الإسلامية والعربية كلها⁽³³⁾، واستطاعت الجمعية بعد مراسلة جهات دولية عدة، ترتيب سفر نحو 400 رجل وامرأة لأداء العمرة، وافتتحت بذلك الطريق البرية بين سورية والأراضي المقدسة بعد تعرض الخط الحجازي الحديدي للدمار على يد الإنكليز⁽³⁴⁾. ورفعت الجمعية احتجاجًا إلى معتمدي الدول الإسلامية والأجنبية عام 1933م بخصوص فلسطين، مطالبة بحفظ حقوقهم في أرضهم، ومشيرة إلى ما يتعرضون له على أيدي الصهاينة من قمع وظلم⁽³⁵⁾.

كان للجمعية نشاطها الاجتماعي المشهود الذي ركز على الجانب الفكري والنشاط المدني التوعوي، من ذلك نشاطها في محاربة قانون الطوائف⁽³⁶⁾ الذي حاولت فرنسا فرضه، لأنها وجدت فيه محاولة لبث الطائفية في سورية، وجعل المسلمين مجرد طائفة من طوائف متعددة تشكل سورية، رغم أنهم ليسوا كذلك، فهم الأكثر عددًا، وثقافة الإسلام تجمع السوريين على اختلاف أديانهم وطوائفهم، لذلك لم تكن مقاومة هذا القانون نشاطًا خاصًا للجمعية وحدها، بل أسهمت فيه جميع الجمعيات الإسلامية السورية في ذلك الوقت⁽³⁷⁾.

عمار، محمد صالح العقاد، محمد ص بعي الحفار، محمود ياسين، ياسين الجويجاتي. انظر: المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(28) البيان التأسيسي لجمعية الهداية الإسلامية، في الفتح، السنة الخامسة، 232 (الخميس 12 شعبان 1349هـ)، ص 503.

(29) باسل الرفاعي، الجمعيات الإسلامية في سورية. جمعية الهداية الإسلامية، رابطة العلماء السوريين، 24 (جمادى الآخرة 1434هـ/ 5 مايو 2013م)، 3.

(30) مأمون ياسين، الرحلة إلى المدينة المنورة، ط1، (1407هـ/ 1987م)، ص 15، 18.

(31) جمعية الهداية الإسلامية بحماة، في الفتح، السنة 6، 260، (8 ربيع الأول 1350هـ)، ص 158.

(32) محمود ياسين، التعليم الديني في مدارس سورية وعد نساء الله تعالى تحقيقه، في الفتح، السنة 7، 314 (الخميس 13 جمادى الآخرة، 1351هـ)، ص 221.

(33) منها مثلاً رسالة عن المجددين المفسدين، الشيوعية أكبر خطر على البشرية، وغيرها، انظر: علي النطنطاوي، ذكريات، 2، ص 49، 48.

(34) مأمون ياسين، ص 20 وما بعد.

(35) انظر: «علماء دمشق وجهاد فلسطين»، في الفتح، السنة 8، 371، (الخميس 27 رجب 1352هـ)، ص 424.

(36) في سياق سياسة فرنسا الطائفية في سورية أصدر المندوب السامي بتاريخ 31 آذار 1936 قانونًا عدلته بتاريخ 18 تشرين الثاني 1938 وفيه يحدد الطوائف المعترفة بها في سورية وينظم شؤون الأحوال الشخصية على أسس وضعية، ووجد القانون مقاومة شديدة من الجمعيات الدينية السورية، لأنه يعارض الدين الإسلامي، ويعمق الفجوة بين السوريين، ويرسخ الطائفية في البلاد، ويخالف بنود الانتداب نفسه، واضطر المفوض السامي للتراجع عنه. انظر: محب الدين الخطيب، «احتجاج جمعية العلماء بدمشق على قانون الطوائف»، في الفتح، السنة 13، 643 (11 محرم 1358هـ)، 18 و19. وانظر: عبد القادر الإدريسي السوداني، المسلمون قوة الوحدة في عالم القوى، ط1، (قم، مركز الأبحاث العقائدية، 1432 هـ)، 1.

(37) مؤتمر الجمعيات والنقابات السورية لنقض قرار الطوائف الدينية وملحقه، الفتح، السنة الثالثة عشرة، 642 (الخميس 4 محرم 1358هـ)، 1035.

3. جمعية التمدن الإسلامي

تأسست في 5 أيار/مايو 1932 م⁽³⁸⁾ على يد مجموعة من رجال الدين والفكر في دمشق منهم محمد بهجة البيطار (1894. 1976 م)، ومحمد جميل الخاني (1892. 1951 م)، ومصطفى الزرقا (1904. 1999 م)، وعلي الطنطاوي، وزهير الشاويش (1925. 2013 م)، وغيرهم، وكان أبرز من تولى رئاستها أحمد مظهر العظمة (1909. 1982 م) الذي شغل مناصب وزارية في سورية⁽³⁹⁾، وكان رئيساً لتحرير مجلتها، وبيّن في معرض حديثه عن الجمعية أنها قامت من أجل الدعوة إلى الإسلام الصافي، و"لتحذر الناس من الإلحاد، وأمثال هذه الضلالات والمنكرات، وتأخذ بأيديهم إلى الإسلام المشرق، دين الهداية والمدنية والسعادة والتسامح الحق والحضارة المثلى"⁽⁴⁰⁾. وحددت الجمعية وسائلها لتحقيق هذه الغاية عن طريق: النشر في مجلتها وسواها من الصحف، والمؤلفات والمنشورات الخاصة، والخطب والدروس، إضافة إلى ما أسمته المساعي الرسمية والشعبية⁽⁴¹⁾.

كان للجمعية نشاط واسع وأعمال متنوعة في حقل التعليم والمجال الصحي الموجه للفقراء، وهو ما أمن لها قاعدة فكرية وشعبية معتبرة مكنتها من المشاركة في القضايا الاجتماعية والسياسية في سورية وخارجها، فأسهمت في التصدي لقانون الطوائف الذي أرادت فرنسا إقراره في سورية، وأولت فلسطين اهتماماً خاصاً⁽⁴²⁾. كما عكست المجلة الفكرية الأدبية التي كانت تصدرها الحالة الفكرية في سورية خلال مدة ظهورها من عام 1935 إلى 1983 م⁽⁴³⁾.

ما يميز جمعية التمدن الإسلامي انفتاحها على مكونات الشعب السوري، ومحاولتها التواصل معهم، والتعاون ضمن إطار الانتماء الوطني السوري، وهو ما لم تفعله جمعيات أخرى، فعلى الرغم من أن مؤسسها وأعضاءها كانوا مسلمين إلا أنها أرادت تقديم صورة صحيحة عن «التمدن الإسلامي» المنفتح البعيد عن التعصب؛ فحرصت على إشراك شخصيات من أديان ومذاهب أخرى في نشاطها الاجتماعي، فكان من ضمن مدرسي مدرستها التي أنشأتها سنة 1945 ثلاثة مدرسين مسيحيين، واستعانت بطبيب مسيحي للعمل في مستوصفها الخيري سنة 1959⁽⁴⁴⁾. وفي انتخابات عام 1947 كان أحمد مظهر العظمة ضمن قائمة الأمة التي ضمت شخصيات مسيحية ويهودية، وحازت تلك القائمة على تأييد علماء الدين في دمشق، وهو ما أسهم بأن تحوز على ثقة الناخبين السوريين⁽⁴⁵⁾. سعت الجمعية للتعاون مع رجال الدين المسيحيين لبذل مساعٍ لإنشاء اتحاد إسلامي - نصراني

(38) أحمد معاذ الخطيب، من نص المحاضرة التي ألقاها بمناسبة مرور 75 عامًا على افتتاح جمعية التمدن الإسلامي، 3 يونيو/حزيران، 2007م، موقع الشيخ أحمد معاذ الخطيب، على الرابط: goo.gl/dnVEoy

(39) ترشح أحمد مظهر العظمة للنيابة عام 1947م، وأصبح وزيراً للزراعة عام 1962م، وأضيفت إليه وزارة التموين وكالة عام 1963م، انظر: حسان الكاتب، الأستاذ أحمد مظهر العظمة في شعره ونثره، مجلة العرفان، المجلد 65، 1 (يناير 1977م/محرم، صفر 1397هـ)، ص 59.

(40) انظر: محاضرة الشيخ أحمد معاذ الخطيب، على الرابط نفسه.

(41) المرجع السابق نفسه.

(42) المرجع السابق نفسه.

(43) عبد الرحمن الحاج، «التمدن الإسلامي» والسلفية الإصلاحية الشامية، صحيفة الحياة، العدد 16388، (16/2/2008م)، ص 16.

(44) أحمد معاذ الخطيب، دور السياسة الدولية في إثارة النزعات الطائفية والوعي الإسلامي تجاهها جمعية التمدن الإسلامي نموذجاً، بحث مقدم لنيل درجة الدبلوم في الشؤون الدولية والدبلوماسية، (الأكاديمية السورية الدولية، 2010)، ص 22.

(45) حصل في انتخابات عام 1947 نوع من التزوير ولذلك فإن أحمد مظهر العظمة فاز في هذه الانتخابات أولاً، ثم أعلن عن خسارته، أما أعضاء قائمة الأمة فهم: زكي الخطيب وحسن الحكيم وسامي كيارة ومحمد أقبيق ومحمد المبارك وعارف الطريقي وعبد الحميد الطباع وأحمد مظهر العظمة وعلي الطنطاوي وعلي بوظو ونوري الإيبش وسعدي الكيلاني وصبيح الخطيب من المسلمين، وفارس الخوري وقسطنطين منسي وإلياس مراد وفريد أرسلالبيان من المسيحيين ووحيد

لمحاربة مظاهر الرذيلة التي ينكرها الدينان في المجتمع، وسعت للتواصل مع العلويين، وافتتح فرع للجمعية في قرية «بيت الشيخ يونس» في مصياف، وقرر مجلس إدارة الجمعية زيادة عدد مقاعد الطلاب العلويين والدروز في الكلية الشرعية⁽⁴⁶⁾. أما مجلتها فقد نشرت مقالات لمفكرين شيعة وعلويين ودروزاً ومن طوائف مختلفة في سورية، في إشارة إلى التأكيد أن الجمعية تعمل للصالح السوري العام، وليس فقط لفئة دون أخرى، وهو ما أعطاها سمعة حسنة في البلاد.

ظلت الجمعية تعمل حتى بعد استلام البعث للسلطة في البلاد، على الرغم من التضيق الذي لحق بها وبأعمالها، ثم اضطرت مجلتها إلى التوقف عن الصدور، وأصبح نشاط الجمعية نشاطاً محدوداً جداً في ظل حكم نظام الأسد.

4. جمعية البر والأخلاق الإسلامية

من الجمعيات الكثيرة التي وجدت في سورية قبل انقلاب البعث جمعية أنشئت في حلب عام 1930م، وجعلت غايتها تثبيت العقائد الإسلامية، وتقويتها في نفوس المسلمين، والعمل بأحكام الكتاب والسنة⁽⁴⁷⁾. وكان الشيخ محمد راغب الطباخ (1876 . 1951م) من أبرز مؤسسيها، وكان إضافة إلى عمله الدعوي مهتماً بالسياسة، وشارك في أول تظاهرة لذوي العمائم ضد الفرنسيين في حلب، وخسر أحد أولاده بعد أن ألفت قوة فرنسية القبض على الولد، وعذبتة ثم أفرجت عنه، فمات بعد أيام، وكان الشيخ وقتئذ مختفياً عن الأنظار بعد نشره منشوراً ضد الفرنسيين⁽⁴⁸⁾.

وكان مع الشيخ الطباخ تلميذه الشيخ مصطفى الزرقا (1904 . 1999م)، الفقيه والنائب والوزير، وأشار إلى ما كان للجمعية من نشاط اجتماعي واسع ودور فعال في الاتصال بزعماء الأحياء من أجل ترتيب بعض المقاومات من وراء ستار، مثل حظر الخمارات، وتسليط رجال عليها لتكسير موجوداتها، وما إلى ذلك⁽⁴⁹⁾.

ومن مؤسسي الجمعية أيضاً السياسي محمد معروف الدواليبي (1909 . 2004م) الذي تولى الوزارة ورئاسة الحكومة بسورية، وشكل الثلاثة: الطباخ والزرقا والدواليبي ثلاثياً فاعلاً، فانخرطت الجمعية في الشأن العام والسياسي، وناصرت قضايا المسلمين في العالم، فخاطبت ملوك العالم الإسلامي من أجل التنديد بفضائع الإيطاليين في طرابلس الغرب، وشاركت في الحملة التي انطلقت للحض على مقاطعة البضائع الإيطالية، وراحت توزع على مساجد حلب خطبة الجمعة التي تبين الفضائع التي لحقت بالمسلمين على أيدي الإيطاليين⁽⁵⁰⁾. وفي جانب آخر طالبت الجمعية بإيجاد مدارس علمية دينية، وتنظيم الأوقاف الإسلامية وجمع معاهدها الدراسية

مرزاحي من الطائفة اليهودية، انظر: قائمة الأمة، في المنار، السنة 2، 258 (19 شعبان 1366هـ / 7 تموز 1947)، 1.

(46) انظر: أحمد معاذ الخطيب، دور السياسة الدولية، ص 29.21.

(47) انظر: «جمعية إسلامية في حلب»، في الفتح، السنة 5، 235 (الخميس 3 رمضان 1349هـ)، ص 555.

(48) محمد راغب الطباخ، الأنوار الجليلة في مختصر الأنبيا الحلبية، ترجمة الشيخ بقلم ابنه محمد يحيى، ص 22.

(49) باسل الرفاعي، الجمعيات الإسلامية في سورية، جمعية البر والأخلاق الإسلامية، (دار ناشري للنشر الإلكتروني، 8 أيار 2011)، على الرابط:

<http://www.nashiri.net/index.php/articles/general-articles-5--4820/v154820->

(50) المرجع السابق نفسه.

الدينية كلها ضمن نظام واحد، وفتح مدارس شرعية في عدد من المدن السورية، وأخرى لتخريج القضاة والمفتين والمحامين الشرعيين ملحقاً بالجامعة السورية⁽⁵¹⁾. ومع توسع نشاط الجمعية أُغْلِقَتْ من قبل السلطات، ولم تستطع متابعة عملها إلا بعد خمس سنوات عقب اتفاق سنة 1936م بين «الكتلة الوطنية» والفرنسيين⁽⁵²⁾.

عملت الجمعية على افتتاح فرع لها في إدلب، تولى رئاسته الشيخ محمد نافع شامي (1907. 1991م)، وكان هذا الفرع يعمل على بث تعاليم الإسلام في المجتمع، ويشارك في العمل الاجتماعي والوطني والسياسي⁽⁵³⁾. وفي تطور لافت في نشاط الجمعية شكلت في عام 1945م فرقة من «الفتوة» الكشافة حملت اسم «جبهة صقور محمد»، وكان لها نشيد خاص، وهم مجموعة من الشباب الذين يعملون تحت راية الإسلام وأهدافه، ولهم نشاط اجتماعي وخدمي في المجتمع⁽⁵⁴⁾.

5. جمعية العلماء

أسس الشيخ كامل القصاب (1873. 1954م) جمعية العلماء مع عدد من علماء دمشق، سنة 1937م، وكانت تهدف لمحاربة الإلحاد والفساد في المجتمع، ونص دستورها على أن غاية الجمعية «الاهتمام بشؤون المسلمين ومؤسساتهم الدينية ورفع مستوى العلماء والمتعلمين وجمع كلمتهم والدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة وأن لا دخل للجمعية بالسياسة»⁽⁵⁵⁾. وكان للجمعية تأثير اجتماعي لافت كونها جمعت بين صفوفها مجموعة كبيرة من علماء الدين. وافتتحت المعهد العلمي الديني بدمشق لطلاب المرحلتين الثانوية والمتوسطة، فكان الطلاب يدرسون، إضافة إلى القرآن وتجويده وعلوم الدين والفقه واللغة العربية، علوم الحساب والهندسة العملية، والفيزياء والكيمياء والجغرافية واللغة الفرنسية والرياضة البدنية. وكان يقوم بالتدريس مجموعة من الأساتذة المختصون، وأشرف على صحة الطلاب فيه خمسة عشر طبيباً، تبرعوا بوقتهم وعلمهم لمؤازرة المعهد، إضافة إلى تبرعات الأهالي بالمال لتأمين حاجة الطلاب من السكن والطعام واللباس وأدوات الدراسة⁽⁵⁶⁾.

وفي الشأن العام أرسلت جمعية العلماء احتجاجاً شديداً للهجة إلى رئيس الجمهورية، وإلى المجلس النيابي ورئاسة الوزراء والمفوض السامي وجمعية الأمم ولجنة الانتدابات ووزير الخارجية الفرنسي، على قانون الطوائف وطالبت بإلغائه، واضطرت الحكومة للاستقالة تحت ضغط التظاهرات التي عمت البلاد، احتجاجاً على هذا القانون⁽⁵⁷⁾. كما وقفت الجمعية ضد بعض قرارات الحكومة الخاصة بالأوقاف والتعليم الديني، فأرسلت الجمعية اعتراضاً بتاريخ 2 ربيع الأول 1359هـ، وطلبت من الحكومة عدم إبرام أي أمر شرعي في دائرة

(51) انظر: مجلة الفتح، السنة 13، 618 (13 رجب 1357هـ/أيلول 1938)، ص 8.9.

(52) انظر: من جمعية البر والأخلاق الإسلامية في حلب، في الفتح، السنة 12، 574 (غرة رمضان، 1356هـ)، ص 597.

(53) انظر: محمد حسان ومحمد وائل شامي، الشيخ محمد نافع شامي رحمه الله، رابطة العلماء السوريين: https://islamsyria.com/site/show_cvs/594

(54) انظر: باسل الرفاعي، جمعية البر والأخلاق الإسلامية، رابطة أدباء الشام، على الرابط: <https://cutt.us/HccMf>. وانظر حول الحركة الكشفية في سورية، حسني عبد الحافظ، الحركة الكشفية في العالم العربي، مجلة المعرفة، (2010)، على الرابط: <https://cutt.us/dncph>.

(55) محمد مطيع الحافظ ونزار أباطة، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، ط1، (دمشق: دار الفكر، 1986)، ج 2، ص 661.

(56) المرجع السابق نفسه، 662. 663.

(57) أرسلت الجمعية هذا الاحتجاج في 21 ذي الحجة 1357هـ/ 10 شباط 1939م؛ انظر: المرجع نفسه، ج 2، ص 664.

الأوقاف قبل عرضه على العلماء الثقات ومشاورتهم⁽⁵⁸⁾. شاركت الجمعية في المؤتمر الأول للعلماء في دمشق في 11 رجب عام 1357هـ/ 6 أيلول 1938م الذي ضم عددًا كبيرًا من علماء بلاد الشام والعراق، تباحثوا في أوضاع العالم الإسلامي، ثم أصدروا بيانًا في تبرئة الإسلام مما يصمه به المستعمرون، وكشف النقاب عن دواعي الفرقة التي يبثها المستعمر في البلاد باسم حماية الأقليات، وطالبوا بمحاربة مظاهر الفساد والانحلال في المجتمع، والاهتمام بالعلوم الدينية واللغة العربية، والوقوف في وجه أعمال الاستعمار في البلاد المحتلة. ثم وجه المؤتمر كلمة إلى رجال السياسة يطلب منهم التحلي بالوطنية والجهاد في سبيل حرية الوطن، والعمل على صيانة حقوق الأديان كافة، والعمل على كشف المؤامرات التي تحاك على الإسلام باسم الأقليات. ووجه المؤتمر كلمة إلى علماء المسلمين في الأقطار الإسلامية جميعها يدعوهم إلى عقد مؤتمر عالمي للنضال ضد العدوان على الإسلام والمسلمين، وتحقيق المبادئ الإسلامية التي هي في خدمة الانسانية. وختم المؤتمر أعماله في 13 رجب 1357هـ/ 8 أيلول 1938م⁽⁵⁹⁾.

بسبب الاعتراضات المستمرة التي كانت تقدمها جمعية العلماء ضاقت السلطات الفرنسية ذرعًا بها، وأغلقتها، وألغت ترخيصها بعد سنوات قليلة على عملها⁽⁶⁰⁾. غير أن هذا لم يمنع أعضائها من الاستمرار بالعمل الاجتماعي والتعليمي، وبقيت لهم منزلتهم في الأوساط الشعبية. وبقي لهم تأثيرهم غير المباشر في السياسة، من خلال تأييد مرشحين أو قوائم معينة، كما حصل في الانتخابات البرلمانية لعام 1947م بعد الاستقلال، بل إن الشيخ محمد كامل القصاب نفسه ترشح لتلك الانتخابات بصفته رئيسًا لجمعية العلماء، ولكنه خسر فيها، وبسبب ما أشيع عن عمليات تزوير تمت في تلك الانتخابات، فقد نظم الشيخ محمد كامل القصاب اجتماعًا في جامع دنكز بدمشق، للاحتجاج على طريقة إدارة الانتخابات، حضرته أعداد غفيرة من الناس، وخطب فيهم القصاب، ووجه رسالة لرئيس الجمهورية باسم الآلاف المحتشدة في الجامع، مطالبًا بالشفافية والنزاهة، وترك الحرية للناس لاختيار من يريدونهم نوابًا عنهم وممثلين لهم في البرلمان⁽⁶¹⁾.

6. الإخوان المسلمون

نشأت جماعة الإخوان المسلمين نتيجة مجموعة من الحوارات واللقاءات التي قامت بها مجموعة من الجمعيات الإسلامية السورية بداية ومنتصف الثلاثينيات⁽⁶²⁾، وكان ذلك تعبيرًا عن الرغبة بالتأثير في المجتمع وحماية هويته، والعمل على إصلاحه ونهضته، فشكّلت الجماعة عام 1945م، وانخرطت في العمل الاجتماعي والسياسي في سورية انخراطًا كبيرًا، حتى صدر أمر بحلها في 1/17/1952م، بدعوى اشتغالها بالسياسة وهي

(58) المرجع السابق نفسه، 665.

(59) المرجع السابق نفسه.

(60) للمزيد حول الجمعية انظر: محمد مطيع الحافظ، جمعية العلماء بدمشق، ط1، (دمشق: دار طيبة، 2015م).

(61) نصوص بابيل، صحافة وسياسة، سورية في القرن العشرين، ط2، (بيروت: دار رياض الريس للكتب والنشر، 2001م)، ص 312-315.

(62) ذكر عدنان سعد الدين أن الإخوان تشكلوا من اجتماع ست جمعيات وهي: الشبان المسلمون بدمشق، والرابطة الدينية بخص، والإخوان المسلمون بحماة، ودار الأرقم بحلب، ودار الأنصار في دير الزور، والشبان المسلمون باللاذقية، بعد خمسة مؤتمرات عقدتها تلك الجمعيات. انظر: عدنان سعد الدين، الإخوان المسلمون في سورية مذكرات وذكريات، ط1، (دم، دار عمار، 2006)، 1، 95. وللتوسع حول نشأة الإخوان في سورية، انظر: يوهانس رايسنر، الحركات الإسلامية، 129 وما بعد. وانظر: اسحق موسى الحسيني، الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة، ط1، (بيروت: دار بيروت، 1952)، 123 وما بعد. وانظر: عبد الله حنا، الأحزاب السياسية في سورية في القرن العشرين، ط1، (منشورات إي كتب، 2011)، ص 133 وما بعد.

أصلًا هيئة دينية صرفة⁽⁶³⁾، قبل أن يصدر قرار تجريم وإعدام من ينتسب إليها في عهد الأسد الأب⁽⁶⁴⁾.

تميزت الجماعة بوجود شخصيات فكرية لها ثقلها الاجتماعي والسياسي فيها، فكان الشيخ مصطفى السباعي (1915. 1964م) المراقب العام للإخوان المسلمين رجلَ فكر وسياسة، ودخل البرلمان نائبًا، واختير نائبًا لرئيس المجلس، واشترك في وضع دستور⁽⁶⁵⁾ 1950. أما الأستاذ عصام العطار (1924) الذي شغل منصب المراقب العام للجماعة سنوات عدة بعد مصطفى السباعي، كان خطيبًا مفوهًا، واختير سنة 1955 أمينًا عامًا لهيئة المؤتمر الإسلامي، وفي سنة 1961م انتُخب نائبًا عن مدينة دمشق، كما انتُخب بالإجماع رئيسًا للكتلة الإسلامية في البرلمان⁽⁶⁶⁾، ورفض باستمرار المناصب الوزارية والرسمية الكبيرة التي كانت تعرض عليه.

استطاعت الجماعة مد نفوذها في المدن السورية جميعها، وكان لها تأثير اجتماعي كبير، وضمت في صفوفها عددًا كبيرًا من رجال التربية والفكر، وهو ما فتح المجال أمامها للعمل من خلال منابر عدة: تعليمية وإعلامية وسياسية، فشاركت في الانتخابات النيابية في عام 1947 و1949 و1961، وكان لها تأثير كبير في صياغة دستور 1950م أيضًا، وكان لها موقفها من الانقلابات المتعاقبة على سورية، ومن قضية الوحدة مع مصر، وبعدها قضية الانفصال، وكذلك كان لها تأثيرها في قضية دين رئيس الدولة في دستور 1973، وغير ذلك من القضايا المهمة⁽⁶⁷⁾، ومع قيام انقلاب في 8 مارس/ آذار عام 1963م، بدأت حالة من الصدام بين الإخوان والنظام الحاكم، وعندما خلا الجو لحافظ الأسد (1936. 2000)، اشتدت قبضة النظام وملاحقته الإخوان المسلمين، وحصلت مواجهات مسلحة واعتقالات، وارتكبت النظام مجموعة من المجازر، راحت ضحيتها أعداد كبيرة من الإخوان ومن غير الإخوان، توجها بمجزرة حماة في فبراير/ شباط 1982م، راح ضحيتها آلاف القتلى من المدنيين بعد دمار كبير لحق بالمدينة⁽⁶⁸⁾، وقد تركت هذه الأحداث آثارها التي لم تمح حتى الآن في المجتمع السوري كله، وفي جماعة الإخوان التي تشتتت، وتفرق أعضاؤها في البلاد المختلفة، لكن الجماعة بقيت على الرغم مما اعترأها من انشقاقات وانقسامات.

ومع استلام بشار الأسد للحكم بسورية عام 2000م، وجد الإخوان فرصة للعودة لسورية والعمل من داخلها، غير أن هذا كان مجرد أوام، ومع اندلاع الثورة السورية عام 2011 بدأ الإخوان العمل لإسقاط النظام، وانخرطوا في أجسام سياسية معارضة تشكلت في إثر اندلاع الثورة، من مثل المجلس الوطني السوري، والائتلاف الوطني المعارض، والمجلس الإسلامي السوري، وغيرها، وبسبب تاريخها التنظيمي وعلاقتها الدولية، ووجودها المتشعب ضمن كيانات المعارضة السورية ومنظماتها المختلفة، فلا يمكن تجاهل قوتها، غير أنها تواجه

(63) بشير زين العابدين، الجيش والسياسة في سورية، ط1، (لندن: دار الجابية، 1429هـ/2008م)، 209. وانظر: اسحق موسى الحسيني، ص 128.

(64) انظر: القانون رقم 49 لعام 1980م، الذي أصدره حافظ الأسد ونشر في الجريدة الرسمية في دمشق 1400/8/25هـ/ يوافق 1980/7/8م. وجاء في مادته الأولى أنه «يعتبر مجرمًا وبعاقب بالإعدام كل منتسب لتنظيم جماعة الإخوان المسلمين».

(65) عبد الله سامي إبراهيم الدلال، الإسلاميون والديمقراطية في سورية حصيد وصرم، ط1، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 2007م)، ص 19 وما بعد. وانظر: عمر رضا كحالة، المستدرك على معجم المؤلفين، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985/1406)، ص 787.

(66) انظر: برنامج مراجعات، قناة الحوار، 2009م، على الرابط: http://www.youtube.com/watch?v=k4nX_KCzLw0&feature=relmfu

(67) للتوسع حول تفاصيل هذه الأحداث انظر: عدنان سعد الدين، وانظر: اسحق موسى الحسيني، وانظر: بشير زين العابدين، وانظر: سعيد حوى، هذه تجربتي وهذه شهادتي، ط1، (القاهرة: مكتبة وهبة، 1407هـ/1987م)، وانظر: منير الغضبان، سورية في قرن، (د.ن، 2006م).

(68) لتفاصيل أكثر حول تلك المجازر، انظر: بشير زين العابدين، 440. 442، وانظر: نيقولاس فان دام، الصراع على السلطة في سورية، الطبعة الإلكترونية المعتمدة باللغة العربية، (2006)، ص 151. 167.

اليوم كثيرًا من التحديات، إضافة إلى حاجتها إلى العمل على كسب ثقة السوريين، وتقديم عمل وخطاب يمثل مصالح السوريين جميعًا، وليس فقط مصالح الجماعة وحدها.

رابعًا: التحولات التي طرأت على الجمعيات الإسلامية وتأثير سياسات نظام الأسد في نشاطها في المجتمع

زاد عدد الجمعيات الخيرية في سورية بعد الاستقلال زيادة كبيرة، وكان كثير منها إسلاميًا، يجمع بين العمل الخيري والدعوة والتعليم الشرعي، وبين سنتي 1952 و1954 تضاعف عدد الجمعيات حوالي ثلاث مرات، فقفز من 73 إلى 203 جمعية، وبحلول عام 1962 وصل إلى 596 جمعية⁽⁶⁹⁾، لكن بعد استلام البعث للسلطة في سورية اختلف الأمر اختلافًا كبيرًا، وتراجع عدد هذه الجمعيات ليصبح 513 جمعية في عام 2000م⁽⁷⁰⁾، كان عملها منحصرًا في العمل الخيري ومساعدة الفقراء، ولم يكن له تأثير في سياسة الدولة، بل كانت تخضع لقوانين صارمة حددت من قدرتها على التحرك خارج إطار تلك القوانين، فنظام الأسد لم يكن يسمح لأي منافس أو مهدد محتمل لسلطته، لذلك كان لحافظ الأسد سياسة خاصة في التعاطي مع تلك الجمعيات.

1. نظام الأسد والجمعيات الإسلامية

صدر قانون الجمعيات رقم 93 في سورية زمن الوحدة مع مصر في 13 نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1958م، مكونًا من 75 مادة، وتبعه مجموعة من التعديلات بعد استلام حافظ الأسد للسلطة عمليًا منذ عام 1969، وأتم التعديلات المطلوبة في عام 1973م⁽⁷¹⁾، حتى غدا القانون مناسبًا للرؤية الأسدية الساعية لتجفيف العمل المدني في سورية بغاية إحكام السيطرة على كل مرافق البلاد، وأعطت التعديلات صلاحيات واسعة للسلطة التنفيذية ليس فقط في عملية تأسيس الجمعيات، بل في دمجها وحلها، وعمدت إلى تجفيف منابع المالية للعمل المجتمعي القائم على التبرعات والهبات، وتعاملت مع الجمعيات بوصفها مؤسسات للقطاع العام، عليها إثبات كفاءتها تحت طائلة الحل، علاوة على المشكلات التي قد تصيب المؤسسين والأعضاء الذين يتم البحث عنهم أمنياً بالدرجة الأولى، وهو ما يدفع كثيرًا منهم للإحجام عن المحاولة ما لم يكن «مدعومًا» أو محميًا لدى السلطة⁽⁷²⁾. وبالمحصلة فإن القانون وتعديلاته يكفيان لإجهاض أي محاولة لتأسيس جمعية مدنية وفق الشروط المعترف بها قانونًا، كما ألحقت تعليمات السلطة القانون وتعديلاته بتعليمات تنفيذية تحول الجمعية في حال ترخيصها إلى تابع للسلطة

(69) انظر: لورا روبز دي إيفيرا وتينا زينتل، نهاية العقد الاجتماعي البعثي في سوريا بشار الأسد: قراءة في التحولات الاجتماعية السياسية من خلال الجمعيات الخيرية، حبيب الحاج سالم (مترجمًا)، معهد العالم للدراسات، 30 نوفمبر/ تشرين الثاني، 2017م، على الرابط:

<http://alaalam.org/ar/politics-ar/syria-ar/item/400-601021016>

(70) المرجع نفسه، الرابط نفسه.

(71) انظر: نص القانون وتعديلاته، على موقع مجلس الشعب، الرابط: <https://cutt.us/bXPZR>

(72) تحتفظ وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل بسورية بمعلومات حول الجمعيات المدنية المسجلة، وهي معلومات على محدوديتها فهي سرية. وكان العمل المدني من أسرار الدولة التي لا يجوز الكشف عنها، وهو ما ينعكس بالطبع على أداء تلك الجمعيات وعلى تمويلها أيضًا، انظر: ماركا بوسمان، قطاع المنظمات غير الحكومية في سورية لمحة عامة، مركز أبحاث وتدريب المنظمات غير الحكومية الدولية INTRAC، ورقة إرشادية رقم 30، حزيران/ يونيو، 2012، 6.

التنفيذية، لا يملك أي قدرة على التحرك خارج نطاقها، وهو ما كان حافظ الأسد حريصاً عليه منذ بداية تسلمه للسلطة في سورية⁽⁷³⁾. من جهة أخرى عمل نظام الأسد على إحداث ما سمي بالمنظمات الشعبية، من مثل الاتحاد النسائي، وطلائع البعث وشيبيبة الثورة وغيرها، لحصر العمل الشبابي والمجتمعي من خلالها فقط، وكانت منظمات تحشيدية وظيفتها سياسية مناصرة لحزب البعث وسياسات النظام الأسد⁽⁷⁴⁾. وبعد أحداث الإخوان المسلمين وتصادمهم مع سلطة حافظ الأسد في الثمانينيات تم تسييس العمل المجتمعي والإسلامي بشكل كبير، وتمت محاصرته بصورة أكبر وأشد شراسة، والملاحظ أن هذا الحصار لم يكن يشمل الجمعيات الإسلامية ذات النشاط المجتمعي التعليمي الثقافي فقط بل كان يشمل جميع الأنشطة والجمعيات المدنية، خاصة الجمعيات الحقوقية والتنموية⁽⁷⁵⁾، إلا أن الجمعيات الإسلامية نالت حظها الأوفر من التضييق والملاحقة، خاصة بعد صدور القانون رقم 49 لعام 1980م، وفي مادته الأولى أنه «يعتبر مجرماً ويعاقب بالإعدام كل منتسب لتنظيم جماعة الإخوان المسلمين»، وكانت تهمة «الأخونة» مناسبة لأي سوري مسلم⁽⁷⁶⁾ إذا كان عاملاً في المجال الديني أو الدعوي أو التعليمي أو الخيري، وهو ما انعكس بصورة واضحة في وجود الجمعيات ونشاطها.

2. جماعة زيد الدمشقية

على الرغم من الضيق الشديد والخوف المرافق لعمل الجمعيات الإسلامية خلال حكم حافظ الأسد، إلا أن النشاط الخيري المحدود لبقايا تلك الجمعيات بقي في نطاق ضيق، وفي التسعينيات استطاع الشيخان أسامة وسارية الرفاعي ابنا الشيخ عبد الكريم الرفاعي (1901 – 1973م) -مؤسس جماعة زيد التي كانت مهتمة بالتعليم المسجدي- العودة إلى سورية بعد مدة قضياها خارج البلاد في إثر زيادة القبضة الأمنية في سورية خلال الثمانينيات. وجماعة زيد هي جماعة دعوية اهتمت بالتعليم المسجدي التقليدي، وكان لها امتداد في معظم مساجد دمشق⁽⁷⁷⁾، وكان العمل الدعوي والخيري الذي قام به الشيخ عبد الكريم ترك أثراً كبيراً في دمشق، فحازت جماعته على ثقة المجتمع المحلي الدمشقي والتجار وأصحاب الأموال الذين يادروا لدعم الجمعيات التي تديرها الجماعة⁽⁷⁸⁾، وهو ما فتح المجال أمام الشيخين أسامة وسارية لاستئناف العمل المدني الخيري الذي توقف لسنوات خلال الثمانينيات حتى ما بعد منتصف التسعينيات، خاصة أن نظام الأسد غض النظر عن نشاطهما

(73) ياسر مرزوق، الجمعيات الأهلية في القانون السوري، في مجلة سورينتنا، 41 (1 تموز، 2012)، 9. وانظر: دراسة قانونية حول مقترحات لتعديل قانون

الجمعيات والمؤسسات الخاصة رقم 93 لعام 1958م، شرطة الوفاق للمحاماة، 2014، على الرابط: <https://al-wifaq.com/?p=149>

(74) تأسس الاتحاد العام النسائي في سورية وفق القانون رقم 33 لعام 1975، وحلَّ بمرسوم تشريعي في إبريل/نيسان 2017م، أما منظمة الطلائع فتأسست عام 1974م، واتحاد شبيبة الثورة تأسس عام 1970م.

(75) انظر: تقرير هيومن رايتس ووتش، لا مجال للتنفس القمع الحكومي للنشاط بمجال حقوق الإنسان في سورية، 16 أكتوبر/تشرين أول 2007، على الرابط: <https://cutt.us/NEuwX>

(76) وأحياناً غير مسلم، حيث تم اعتقال بعض السوريين المسيحيين بتهمة الانتماء لجماعة الإخوان المسلمين.

(77) للتوسع حول جماعة زيد انظر: أرنو لافان، حركة إسلامية في ظل نظام عسكري (جماعة زيد الدمشقية أنموذجاً)، محمد عبد الرؤوف (مترجمًا)، كتاب المسبار «الإخوان المسلمون في سورية ممانعة الطائفة وعنف الحركة»، أبو ظبي، مركز المسبار للدراسات والبحوث، العدد 32، (2009م).

(78) دعا الشيخ عبد الكريم الرفاعي إلى تأسيس الجمعيات الخيرية التي تعني بشؤون الفقراء والمرضى والأرامل والأيتام المحتاجين من باب إحساسه بالمسؤولية الاجتماعية، وكان يرى أن العمل الخيري سيساعد على نشر الدعوة ونشر العلم وتأييف قلوب الناس، ولذلك فقد أنشأ ثلاث جمعيات خيرية بمساعدة التجار والأغنياء من مريديه، وهي: جمعية البر والإحسان، وجمعية إغاثة الفقير، وجمعية النهضة الإسلامية، وسعى من خلال هذه الجمعيات لسد حاجة فقراء مدينة دمشق، وكانت جمعياته تقدم رواتب شهرية، ومعونات غذائية ودوائية ولبسة للمحتاجين والفقراء، كما اهتمت بمكافحة التسول في دمشق.

الذي لم يكن يثير قلق السلطات الأمنية، وكان الشيطان حريصان على عدم التدخل بالسياسة والاهتمام بالعمل المجتمعي الدعوي التعليمي الخيري الذي يحصن الشباب ودينهم، ويهتم بتعليمهم التعليم الديني الذي يمنع انجرافهم مع موجة العولمة والأفكار التغريبية المختلفة.

وعند استلام بشار الأسد السلطة عام 2000م شجع نظامه الذي تبني سياسات اقتصادية نيوليبرالية النشاط المدني شريطة عدم التدخل في السياسة، وهو ما أدى إلى زيادة عدد الجمعيات المدنية المسجلة في سورية لتصل عام 2009 إلى 1485 جمعية مسجلة⁽⁷⁹⁾، كان كثير منها خيري، وقليل منها ثقافي بيئي. وقد أطلق الشيخ سارية الرفاعي في عام 2002 مشروع «حفظ النعمة» الذي وزع في سنة واحدة أكثر من 240 ألف وجبة غذائية في مختلف مناطق سورية⁽⁸⁰⁾، وأشهرت جمعية «حفظ النعمة» في 2005/10/3م، بدمشق⁽⁸¹⁾، وبرز دورها عام 2006 في أثناء الحرب الإسرائيلية على لبنان، حيث نزع آلاف اللبنانيين إلى سورية، فأمنت الجمعية استقبال النازحين والوجبات الغذائية لهم بسرعة فائقة لفتت الأنظار⁽⁸²⁾.

وكان العمل الدعوي المسجدي الذي قامت به جماعة زيد بإشراف الشيخين أسامة وسارية له أثره في المجتمع الدمشقي، وتعاضم دور الجماعة في ظل سماح حكومي كان له أسبابه⁽⁸³⁾، وأطلقت في بعض المساجد التابعة لها في فبراير/ شباط 2007م مسابقة فكرية حملت اسم «مسابقة عبد الكريم الرفاعي للفكر الإسلامي، تناولت موضوعات فكرية معاصرة، من مثل الإسلام وحقوق الإنسان، والإسلام والعولمة وغيرها⁽⁸⁴⁾، أسوست الجماعة موقعًا إلكترونيًا هو موقع «صدي زيد» الذي توقف بعد الثورة السورية وحذفت مواده. عملت الجماعة على فتح قناة تلفزيونية باسم «الدعوة» الفضائية، لم تستمر بالعمل أكثر من ثلاثة أشهر، وصودرت أجهزتها ومعداتها، واعتقل كل العاملين فيها⁽⁸⁵⁾.

ظلت علاقة جماعة زيد مع نظام الحكم في سورية علاقة حذرة يشوبها التوجس، وكانت الجماعة تترك مسافة بينها وبين النظام، وهو ما زاد من رصيدها الشعبي، لذلك أراد النظام التقرب منها، فقام بشار الأسد بزيارة شخصية إلى الشيخ أسامة الرفاعي عام 2002، وصلى في مسجد الشيخ عبد الكريم الرفاعي في كفر سوسة، وعلى الرغم من أن جماعة زيد كانت تدرك أن مساحة العمل مع النظام محدودة، لكن أوضاع البلد والعلاقات

(79) . Laura Ruiz de Elvira Carrascal, State/Charities relation in Syria: between reinforcement, control and coercion. <https://cutt.us/otyb4>

(80) سمير الزعي، مشروع حفظ النعمة فكرة انطلقت من وليمة، موقع دمشق، 29 مارس/ آذار، 2009، على الرابط:

<http://www.esyria.sy/edamascus/index.php?p=stories&category=community&filename=200803290851025>

(81) موقع جمعية حفظ النعمة، على الرابط: <http://www.hifz.org/detail/org.hifz.www/>؛ 62=ID&2=CID&0=ID?aspx.detail/org.hifz.www/

(82) بعد انتهاء حرب 2006 أقام «حزب الله» مهرجانًا كبيرًا، للاحتفال بـ«النصر الإلهي» على إسرائيل، وتم دعوة الشيخ سارية الرفاعي لحضور المهرجان والقاء كلمة فيه، تمييزًا للجهود التي قامت بها جمعية «حفظ النعمة» في استقبال النازحين اللبنانيين، لكنه اعتذر ولم يشارك.

(83) اضطر بشار الأسد لمسيرة الوضع الداخلي في البلاد نتيجة التهديدات الخارجية التي كانت تلاحقه، خاصة بعد أحداث سبتمبر أيلول 2001 وما تبعه من غزو العراق 2003، ومسألة اغتيال رفيق الحريري عام 2005م، وفي عام 2008 شهد نظام الأسد انفراجًا دوليًا، فقد استقبلت باريس بشار الأسد، وكان هناك مؤشرات تدل على استئناف وشيك للحوار مع أميركا، وكذلك سيطر حزب الله على بيروت، ما أعطى النظام حالة من الاطمئنان. للتوسع حول وضع النظام حينها، انظر: كمال ديب، تاريخ سورية المعاصر من الانتداب الفرنسي إلى صيف 2011، ط2، (بيروت: دار النهار، إبريل/ نيسان 2012)، ص 721 وما بعد.

(84) أرنو لافان، ص 38.

(85) انظر: السلطات السورية تغلق قناة فضائية سورية خاصة بدمشق وتمنع توزيع مجلة تناولت حجب موقع فيس بوك، على الرابط:

<http://shashasouria.yoo7.com/t41-topic>

الاجتماعية سمحت لها بأن تملك نفوذًا، وهو ما أعطاهها مساحة من العمل بحرية نسبية في جمع التبرعات، وإرسال الخطباء، وإقامة الدروس في مساجد دمشق⁽⁸⁶⁾. ومع تنامي دور الجماعة الاجتماعي امتلكت ثقلاً سمح لها بمواجهة بعض المظاهر العلمانية، من مثل سحب بعض الكتب المعادية للحجاب⁽⁸⁷⁾، وإيقاف مشروع «تثقيف النظر»⁽⁸⁸⁾، وما مثله من أمور، لكن خلال عام 2008م تغيرت الأحوال المحيطة بنظام الأسد التي كانت تدفعه لمهادنة بعض أطراف المجتمع السوري، فعمل على تشديد الإجراءات في ما يخص التعليم الشرعي والمسجدي، وما يخص عمل الجمعيات الإسلامية المدنية، وصدر قرار بإقالة الشيخ أسامة والشيخ سارية من مجالس الجمعيات الخيرية التي كانا يشاركان بها، وهو ما يعني إرسال رسائل لهما ولجماعة زيد بأن هذا النظام يمكن أن يقلب ظهر المجن متى أتيح له ذلك، وهو ما كانت الجماعة متأكدة منه، وتعلمه جيداً، وتبدي واضحاً خلال الثورة السورية⁽⁸⁹⁾.

وعند بدء الثورة السورية عام 2011 كانت مساجد جماعة زيد منطلقاً للتظاهرات، خاصة مسجد عبد الكريم الرفاعي في كفر سوسة بدمشق، وخطب قادة الجماعة من على منابر مساجدهم مطالبين بإطلاق المعتقلين، والبدء بعملية إصلاح حقيقي تحفظ البلاد والعباد، لكنها واجهت قبضة أمنية شديدة وقتل واعتقل من طلابها كثيرون، وتعرض رئيسها الشيخ أسامة لاعتداء كاد يؤدي بحياته، ما اضطره ومجموعة كبيرة من الجماعة للخروج خارج سورية، وأصبح الشيخان أسامة وسارية شخصيتان ثوريتان لهما رمزية كبيرة في تركيا.

وأخيراً يجب التأكيد أن الجمعيات الإسلامية في سورية استطاعت التأثير، كونها تجد قبولاً في المجتمع السوري المحافظ بعمومه، والذي يحترم الدين وعلماء الدين ويعطيهم منزلة كبيرة، وكان للسياسة الأمنية التي مارسها نظام الأسد وطريقة تعامله مع الشخصيات الإسلامية والمؤسسات الاجتماعية الإسلامية على اختلافها إما سحفاً أو ترويضاً أو تدجيناً أو استخداماً وظيفياً⁽⁹⁰⁾ أثر أيضاً في طريقة تعاطي السوريين معهم من جهة، وفي طريقة استعداد هؤلاء للعمل العام الجامع لكل السوريين فيما بعد، بعد أن تعودوا على العمل المنحصر ضيق النطاق بسبب المحاذير الأمنية التي كانت تهددهم، وربما يكون هذا من أهم الأسباب التي جعلت للمؤسسة الدينية دورها الكبير في الثورة السورية. بغض النظر عن تقييم هذا الدور والرأي فيه، وهو ما يحتاج إلى بحث آخر أكثر تفصيلاً وعمقاً.

(86) انظر: توماس بيريه وكيثيل سيلفيك، حدود التحديث السلطوي في سورية الضمان الاجتماعي الخاص الجمعيات الخيرية الإسلامية وصعود جماعة زيد، أحمد نظير أناسي (مترجمًا)، موقع العالم، على الرابط:

<http://alaalam.org/ar/translations-ar/item/413609161016->

(87) في نوفمبر/ تشرين الثاني 2005، عقد في جامعة دمشق مؤتمر المرأة والتقاليد، وزع فيه منظمو المؤتمر كتاباً بعنوان «فليتزع الحجاب» لمؤلفته الإيرانية شهزادوت جافان وترجمة فاطمة بلحسن، وطبعة دار بترأ مديرها لؤي حسين، وبعد توزيع الكتاب أصبح مادة خطبة في أكثر من مسجد دمشق، مما دفع النظام لسحبه من الأسواق. حول تفاصيل الحادثة وما كتب حولها في الصحف حينها، انظر: موقع الأوان، على الرابط: goo.gl/k5jhA7.

(88) دورات تثقيف النظر (القرنين) هي دورات تعدها الأمم المتحدة والمؤسسات الحكومية لبعض الدول للوقاية من مرض الإيدز، وهي موجهة للشباب والشابات من عمر 15 إلى 25 سنة، وتشرح إجراءات جنسية وقائية عبر نشر وتوزيع كتب وفيديوهات تتحدث عن العلاقات الجنسية، وكيفية الحماية، وهو ما رأت فيه الجماعة حثاً على الرذيلة والتهتك، ورغم توقف تلك الدورات حينها إلا أن الأمم المتحدة قامت بعمل هذه الدورات بعد ذلك بسنوات في مارس/ آذار 2011، عبر مؤسسات مرخصة من قبل نظام الأسد في دمشق وحمص وحلب. انظر: صور من إحدى الدورات التي أقيمت في دمشق في مارس/ آذار 2011م، على الرابط:

https://www.facebook.com/pg/YPEERSYRIA/photos/?tab=album&album_id=10150122912419628

(89) انظر: توماس بيريه وكيثيل سيلفيك، على الرابط: <http://alaalam.org/ar/translations-ar/item/413-609161016>

(90) انظر: عبد القادر موسى، النظام السوري وتدجين المؤسسة الدينية، موقع أنا برس، مايو/ أيار 2020، على الرابط: <https://cutt.us/xRAmZ>

خامسًا. الخاتمة

ظهر واضحًا من خلال العرض السابق مدى فاعلية الجمعيات الإسلامية في سورية الحديثة، ومدى التأثير الاجتماعي والسياسي الذي لعبته على مدى عقود، على الرغم مما اعترى عملها من تفاوتات ومثالب تركت ندوبًا في المجتمع السوري أحيانًا، كما ظهر أيضًا كيف استطاع نظام البعث والنظام الأسد تقويض نشاط الجمعيات الإسلامية في سورية خاصة، وتقويض العمل المدني السوري ككل، وهو ما يسمح بتسجيل النقاط الآتية:

1. ظهور الجمعيات الخيرية في نهاية الدولة العثمانية حكمته الرغبة بالعمل الجماعي بعيدًا عن سلطة الدولة التي كانت تتراجع حينئذ، وقد مارست تلك الجمعيات دورًا اجتماعيًا إغاثيًا خاصة في ظل انتشار المجاعات والأمراض الفتاكة والحروب، وعدم تمكن الدولة القيام بواجباتها على أكمل وجه⁽⁹¹⁾.
2. كانت التغيرات التي بدأت تظهر في المجتمع، والدعوة إلى النهضة والمدنية الحديثة قد دفعت العلماء والمفكرين إلى التفكير بالطرق التي تسهم في إصلاح بلاد المسلمين ونهضتها، والعمل على جعلها تتبوأ المنزلة التي تستحقها بين الأمم المتحضرة، لذلك أخذت الحلقات والتجمعات الثقافية مكانها في سورية، وكانت تضم رجال الفكر الإسلامي والعلماء والباحثين والعاملين في الشأن العام. هذه الحلقات، على الرغم من نخبويتها، إلا أن تأثيرها كان واضحًا في الدفع نحو التحرك للتغيير، والعمل على محاربة الجهل، وبعث الأفكار التجديدية، التي لم تكن تخرج عن بوتقة الإسلام، على الرغم من أنها لم تكن تجد طريقها للناس بسهولة لأسباب كثيرة.
3. أما الجمعيات السرية، وكان كثير من أعضائها من العلماء والمفكرين المسلمين، فانتشرت في الدولة العثمانية تأثرًا بالأوضاع السياسية في الدولة، وكانت تدعو للإصلاح السياسي والإداري، ثم توجهت للعمل من أجل حفظ حقوق العرب، والدعوة لاستقلالهم بعد أن أصبح واضحًا أن الدولة العثمانية موشكة على الانهيار.
4. وبعد الانتداب الفرنسي، كان الخوف على دين وهوية المجتمع الدافع الأساس لظهور الجمعيات الإسلامية التي كان هدفها تعليم الدين وحفظ الهوية، وتراجعت عمليًا موجة التجديد والتفكير بالنهضة التي كانت تسعى للأخذ عن الغرب بما لا يتعارض مع الدين، وصار العمل منصبًا على محاربة التغريب والأفكار الوافدة والمظاهر المتحررة، وتحصين المجتمع من التغيرات القادمة مع الفرنسيين الذين يختلفون باللغة والدين والعادات والمستوى الثقافي والعلمي.
5. بعد الاستقلال كان التغيير والأفكار التغييرية قد تغلغت في المجتمع، ولم تستطع الجمعيات الإسلامية الوقوف أمام التحديات التي ظهرت، والتي كانت أكبر من الإمكانيات المتاحة أمامها، ولكن هذا لم يكن يعني هزيمة تلك الجمعيات، بل كان وضع الدولة دافعًا لها للعمل على إعادة المجتمع لدينه، وكان الجو الليبرالي الحاكم في تلك المدة مساعدًا على زيادة نشاطها داخل

(91) انظر: رغداء زيدان، صور من تاريخ الطوائف في سورية، صحيفة حبر، مايو 2020، على الرابط: <https://cutt.us/9TNW>

المجتمع، وهو ما انعكس على تأثيرها السياسي، وعملت بعض الجمعيات على الاستفادة من هذا التأثير لفرض قوانين ومحاربة أخرى وفق رؤيتها المحافظة والساعية لحفظ المجتمع ودينه.

6. ظهر التصادم بين السياسيين وبعض الجمعيات الإسلامية عندما زاد تأثير تلك الجمعيات في المجتمع⁽⁹²⁾، وبالتالي زادت تدخلاتها في رسم سياسية الدولة الداخلية، وكانت أوامر الإغلاق الحكومية تأتي لإنهاء الصراع عندما يتجاوز خطوطه الحمر، إلا أن هذا لم يكن يعني انتصاراً واضحاً للحكومة على الجمعيات، بل كانت الأمور تخضع لمد وجزر بحسب قدرة كل طرف على الاستفادة من المعطيات الموجودة على الأرض، ومدى قدرة الجمعيات على تحريك الشارع.

7. مع زيادة مد الأفكار اليسارية والشيوعية أصبحت معركة المفكرين المسلمين وجمعياتهم الإسلامية تركز على بيان تفوق الإسلام فكرًا وإدارة ونظامًا على ما عداه من أنظمة إدارية أو سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أخرى، وظهرت الكتلة الاشتراكية الإسلامية التي خاضت الانتخابات البرلمانية عام 1949م، وفاز فيها الشيخ مصطفى السباعي الذي كان لكتابه «اشتراكية الإسلام» صدى واسع في سورية والعالم العربي والإسلامي⁽⁹³⁾.

8. كانت الجمعيات الإسلامية السورية معظمها تتمحور حول شخصية رئيسة لها وزنها العلمي والاجتماعي والديني، وكان لبعض الشخصيات أثر كبير طغى على أثر الجمعية نفسه، وبعض الجمعيات خبا دورها أو انتهى بموت أو غياب شخصيتها الرئيسية المحركة، وقد تنبه النظام الحاكم لهذا فعمل على إبعاد بعض الشخصيات المؤثرة مجتمعيًا⁽⁹⁴⁾ في إطار سياسته لاحتواء عمل الجمعيات الإسلامية وتأطيرها في إطار محدد.

9. تركز الجمعيات الإسلامية في المدن الكبرى، وعملها ضمن نطاق جغرافي محدد، وبإمكانات محدودة تعتمد على التبرعات والهبات المحدودة، لم يسمح لها بمد نفوذها إلى أنحاء سورية كلها، ومن ثم كانت قدرتها على التأثير الاجتماعي الواسع والتغيير الثقافي محدودة، ولم تستطع الوقوف أمام مد التغيير القيمي والثقافي الذي وصل إلى أنحاء سورية كلها.

10. إذا حاولنا تقييم عمل هذه الجمعيات خلال القرن المنصرم نجد أنها نجحت في تحقيق بعض الأهداف، وفشلت في أخرى، فقد نجحت في التأثير الاجتماعي وحفظ هوية المجتمع المحافظة، واستطاعت تحريك الشارع لإلغاء قوانين وإقرار أخرى انطلاقًا من رؤية دينية إسلامية،

(92) شهدت سورية بعد استقلالها عدة انقلابات، كان القائمون بها يعملون على إسكات الأصوات المعارضة أو التي يمكن أن تسبب مشكلات ما، وكثيرًا ما لجأ هؤلاء إلى إلغاء الأحزاب والجمعيات الأهلية والصحف، انظر: رغداء زبدان، جذور الاستبداد في سورية الحديثة، مركز حبر للدراسات، 27 حزيران/ يونيو 2020، على الرابط: <https://cutt.us/OKrrb>

(93) أحدث مفهوم «اشتراكية الإسلام» ضجة كبيرة في الأوساط السورية خاصة العربية والإسلامية عامة، وأطلق بعضهم على الشيخ مصطفى السباعي تيمناً لقب «الشيخ الأحمر»، بينما استفاد الرئيس المصري جمال عبد الناصر من كتاب السباعي وأعلن: أن الديمقراطية والاشتراكية التعاونية هي العقيدة الرسمية لمصر، وبين مستندًا إلى الكتاب أنها لا تتعارض مع الإسلام، انظر: عدنان سعد الدين، برنامج شاهد على العصر، قناة الجزيرة، على الرابط: goo.gl/Y6L5A6. وانظر: يوهانس رايسنر، 347.348.

(94) كما حصل مع مصطفى السباعي وعصام العطار وغيرهم، وكما حصل مع كثير من رجال الفكر والدين بعد أحداث الثمانينيات.

وأيضًا استطاعت تحقيق أهداف سياسية في مراحل صعبة، وكان نضالها لا يتوقف على الرغم من التصادم مع الحكومات المختلفة. لكن بسبب تركزها في المدن الكبرى لم تستطع الوصول إلى أطراف الشعب السوري كلها، ولم تهتم بدراسة حاجات المجتمع السوري بتنوعاته، ولم تهتم بمحاولة فهمه ولا تنميته، بل كانت تتعامل من منطلق عارف لمصلحة المجتمع، يعمل على اختيار الأفضل له وفق رؤية العاملين في تلك الجمعيات والمؤثرين فيها، إضافة إلى وجود خلل في الخطاب الاجتماعي الذي كانت تتوجه به للناس، وقد سجل التاريخ السوري الحديث انتصارًا لشخصيات يسارية على شخصيات إسلامية لها ثقلها⁽⁹⁵⁾، وكان لهذا دلالاته التي تستحق الدراسة المعمقة.

لقد كان التحالف مع القوى الاقتصادية والسياسية له أثره على طريقة تعاطي تلك الجمعيات والقائمين عليها مع المجتمع السوري، وحتى مع السلطة السياسية القائمة، فالعمل الخيري الذي كانت تقوم به الجمعيات الإسلامية جعلها تتعاطى مع التجار وأصحاب الأموال من منطلق مصلي متبادل، بمعنى أنها لم تقف في وجه مصالحهم، وكانوا بالمقابل يحرصون على دعمها وتمكينها من القيام بواجباتها الخيرية تجاه الناس، وكذلك بالنسبة إلى السلطة السياسية بعد الاستقلال خاصة، فلم تقف الجمعيات الإسلامية في وجه السلطة عمومًا إلا في حالات محددة، ولم تتدخل بالسياسية بصورة كبيرة، إلا بما يضمن لها مساحة عمل في المجتمع، لحرصها على ألا تنعكس معارضتها وتدخلاتها السياسية في نشاطها الاجتماعي وتأثيرها في سلوك المجتمع ككل، ولهذا كان للخطاب الآخر الذي يلامس حاجات الناس الفقراء وأوجاعهم أثر اجتماعي ربما أكبر في بعض الأحيان، وأيضًا كان للخطاب الآخر أثر سياسي مكن سياسات التأميم مثلًا زمن الوحدة بين سورية ومصر الحصول على تأييد شعبي واسع نسبيًا، وعلى الرغم من تأثر الناس بالمنزلة الدينية للمشايع والقائمين على الجمعيات الدينية إلا أن هؤلاء لم يستطيعوا الوقوف في وجه سياسات التأميم على الرغم من تحالفهم القديم مع التجار وأصحاب الأموال والأموال.

وأخيرًا، يلاحظ أن العمل المدني الإسلامي في سورية انشغل بالدفاع عن الهوية الدينية لمسلمي سورية، السنة منهم تحديدًا، لكنه لم يستطع صياغة هوية جامعة لكل السوريين، ولا بناء عقد اجتماعي يرمم التصدع والتشظي الذي أحدثته سياسات نظام الأسد في سورية في ما بعد، على الرغم من تأكيد بعض الجمعيات على عدم قصر نشاطها على المسلمين فقط، واهتمامها بالتوجه إلى السوريين كلهم، وحتى نكون منصفين لا يمكن تحميل مسؤولية ذلك للعاملين في هذه الجمعيات وحدهم، فهذا يندرج على العاملين في الشأن المدني السوري جميعًا على اختلاف أيديولوجياتهم وأديانهم ومذاهبهم، ولهذا أسباب تحتاج إلى بحث وتحليل، وكان من نتائج هذا الفشل، تمكن الاستبداد الأسدي من التحكم بسورية، وتدمير نسجها الاجتماعي، وهو ما دفع السوريون ثمنه غالبًا من أرواحهم وأموالهم وبلادهم خلال السنوات الماضية.

(95) كما حصل عندما فاز رياض المالكي شقيق عدنان المالكي على الشيخ مصطفى السباعي في انتخابات عام 1957م.

المصادر والمراجع

1. أباطة. نزار، الشيخ علي الدقر رجل أحيأ الله به أمة، ط1، (دمشق: دار الفكر، 1431هـ/ 2010م).
2. الحافظ. محمد مطيع، جمعية العلماء بدمشق، ط1، (دمشق: دار طيبة، 2015م).
3. الحافظ. محمد مطيع، ونزار أباطة، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، ط1، (دمشق: دار الفكر، 1986).
4. الحسيني. اسحق موسى، الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة، ط1، (بيروت: دار بيروت، 1952).
5. الحوراني. أكرم، مذكرات أكرم الحوراني، (مصر: مكتبة مدبولي، د.ت).
6. الخطيب. عبد العزيز، غرر الشام في تراجم آل الخطيب الحسنية ومعاصريهم، ط1، (دمشق: دار حسان، 1417هـ/ 1996م).
7. الدلال. عبد الله سامي إبراهيم، الإسلاميون والديمقراطية في سورية حصيد وصريم، ط1، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 2007م).
8. السوداني. عبد القادر الإدريسي، المسلمون قوة الوحدة في عالم القوى، ط1، (قم: مركز الأبحاث العقائدية، 1432 هـ.ق).
9. الطنطاوي. علي، ذكريات علي الطنطاوي، ط1، (جدة: دار المنارة للنشر، 1405/ 1985).
10. عوض. عبد العزيز محمد، الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864. 1914م، ط1، (القاهرة: دار المعارف، 1969م).
11. الغضبان. منير، سورية في قرن، (دم: د.ن، 2006م).
12. القاسمي. ظافر، جمال الدين القاسمي وعصره، ط1، (دمشق: دن، 1385هـ/ 1965م).
13. كحالة. عمر رضا، المستدرک علی معجم المؤلفين، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1406/ 1985).
14. المرعشلي. يوسف، نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، ط1، (بيروت: دار المعرفة، 1427هـ/ 2006م).
15. بابيل. نصوح، صحافة وسياسة، سورية في القرن العشرين، ط2، (بيروت: دار رياض الرئيس للكتب والنشر، 2001م).
16. بوسمان. مارينا، قطاع المنظمات غير الحكومية في سورية لمحة عامة، (مركز أبحاث وتدريب المنظمات غير الحكومية الدولية INTRAC، حزيران/يونيو، 2012).
17. حنا. عبد الله، الأحزاب السياسية في سورية في القرن العشرين، ط1، (منشورات إي كتب،

(2011).

18. حوى. سعيد، هذه تجربتي وهذه شهادتي، ط1، (القاهرة: مكتبة وهبة، 1407هـ/ 1987م).
19. خوري. كوليت، أوراق فارس الخوري، ط2، (دمشق: دار طلاس، 2001).
20. ديب. كمال، تاريخ سورية المعاصر من الانتداب الفرنسي إلى صيف 2011، ط2، (بيروت: دار النهار، أبريل/ نيسان 2012).
21. رايسنر. يوهانس، الحركات الإسلامية في سورية من الأربعينيات وحتى نهاية عهد الشيشكلي، محمد إبراهيم الأتاسي (مترجمًا)، ط1، (بيروت: دار رياض الريس، يوليو 2005).
22. زين العابدين. بشير، الجيش والسياسة في سورية، ط1، (لندن: دار الجابية، 1429هـ/ 2008م).
23. سعد الدين. عدنان، الإخوان المسلمون في سورية مذكرات وذكريات، ط1، (دم: دار عمار، ط1، 2006).
24. فان دام. نيقولاس، الصراع على السلطة في سورية، (نسخة إلكترونية، 2006).
25. ياسين. مأمون، الرحلة إلى المدينة المنورة، ط1، (دم: دن، 1407هـ/ 1987م).